الاختلاف الجنسي عن لوس إريغاراي

وسُبل تفكيك النظام الأبوي

مجاهد وسيلة

جامعة الجيلالي اليابس-سيدي بلعباس

ملخّص:

غيّرت لوس إريغاراي بأسلوبها المعقد في الكتابة، وبنقدها للتحليل النفسي وباعتمادها على التفكيك كوسيلة لدحض التخيلات الذكورية، الطريقة التي تنظر فيها المرأة إلى نفسها بل وأكثر من ذلك طريقة نظر الرجل والمجتمع والثقافة إلى المرأة، فابتكرت إثر ذلك لغة أنثوية مغرية وشهوانية حاربت من خلالها التصّورات القائمة والنتائج المتوصّل إليها من قبل المحللين النفسانيين، التي تصب كلها في قالب النظام الأبوي. صحيح أنها انطلقت من نقد فرويد ومن بعض أفكار ومقولات جاك لاكان، لكنها توصّلت بسياساتها في التفكيك إلى نتائج مغايرة ساهمت بشكل كبير في إثراء الحركة النسوية، إثراء جعلها من أهم الرائدات النسويات.

الكلمات المفتاحية: تفكيك؛ اختلاف؛ لوس إريغاراي، نسوية؛ كتابة.

يُعد النقد النسوي فرعا من فروع النقد الثقافي، الذي ركّز في طروحاته على مسائل متعلقة بالنسوية وبالجنوسة، وبطرائق تشكل صورة المرأة في المجتمع، وقد ظهر منذ ما يُقارب الثلاثين عاما. لا يهتم هذا النقد بقضايا المرأة فقط وإنما يهتم أيضا بمختلف الحركات النسوية، مما جعله يعرف انتشارا واسعا في كل بقاع الأرض.

يهمنا في هذه الورقة البحثية الحركة النسوية الفرنسية نظرا لانتماء لوس إريغاراي إليها، هذه الحركة التي توافقت زمنيا مع باقي الحركات النسوية الكبرى والتي أتاحت للنساء الفرنسيات وغيرهن من المقيمات في فرنسا فرصة التعبير عن أنفسهن، إذ كان لابد عليهن انتظار الثورة الفرنسية حتى ترتسم المعالم الأولى لبداية هذه الحركة. لكن هذا لا يعني انعدام حركة نسوية مبكرة سبقت اندلاع الثورة، إذ نجد جمعية أوتيل دو رامبوييه قد شكّلت حلقة أدبية،

وأطلقت عليها اسم: مجلس أرتنيس الأزرق، كانت تديرها جولي دانجين رفقة العديد من النسوة، حيث كنّ يطالبن بالمساواة السياسية التامة.

في الفترة نفسها خاضت أولمب دي غوج؛ وهي عبارة عن ممثلة، نضالا كلاميا مطالبة من خلاله بمجموعة من الحقوق، أما في ظل الثورة النسوية فقد ولدت أوائل المنتديات النسائية، التي راحت من خلالها المرأة الفرنسية تتألّق في مجال الأدب والفن، ومنهن من انخرطن في الصحافة وفي العمل السياسي أيضا، إلى جانب مساهمتهن بأعمال نقدية وإبداعية. هذه الأعمال برهنت بأنّ العلم والفن والسياسة ليسوا حكرا على الرجل فقط، وإنما للمرأة نصيب فيهم أيضا.

لتظهر بعد ذلك العديد من الصحف النسائية بتحريض من ماري دورام بداية بصحيفة" حقوق المرأة ". كما كان للرجل دور في تأسيس العديد من الحركات النسوية مثلما فعل ليون ريشار الذي أسّس جمعية العمل من أجل تحسين وضع المرأة[1]. بهذه الحركات والأصوات التي أخذت تتعالى هنا وهناك، إلى جانب الأعمال الفنية والأدبية التي راحت من خلالها المرأة تعبّر عن نفسها، وتطالب إبداعيا بحقوقها، أصبحت المرأة الفرنسية إثر ذلك امرأة تعرف بداية كيف تطالب بحقوقها بسبل وبطرق مختلفة مستثمرة في ذلك كل الوسائل المتاحة.

بعد الموجة الأولى التي قامت في ظل الثورة الفرنسية، وتصاعد الأصوات المطالبة بالحرية والعدالة والمساواة، جاءت الموجة النسوية الثانية أو ما يُطلق عليها بنسويات الجيل الثاني، كنتيجة حتمية لتضاعف نشاط الحركات النسوية وظهور حركات تحررية جديدة تطالب بمطالب أخرى مختلفة ومغايرة، كانت الانطلاقة الفعلية لهذه الموجة سنة 1960 واستمرّت إلى غاية نهاية القرن العشرين، تميّزت بتجاوزها لمطلب المساواة الحسية، ودعوتها إلى إعادة تشكيل الصورة الثقافية للأنوثة.

عُدّ كتاب الجنس الثاني لسيمون دي بوفوار الكتاب العمدة الذي مهّد لهذه الحركة وسطّر معالمها، ليس هذا فحسب بل عُدّ إنجيل الحركة النسوية بأسرها حيث تطرّقت فيه صاحبته إلى كل ما عانته المرأة وما تكبّدته من إلغاء وتهميش وقمع من قبل الرجل، كما قامت

[1] ينظر: مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، حفناوي بعلى، منشورات الاختلاف، الجزائر الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2009.ص 12، 13.

فكرتها العامة على أساس واحد تمثّل في القيمة المرتبطة بحقوق المرأة في ظل المساواة عائدة إلى فكرة أننا مخلوقات اجتماعية معارضة فكرة سيجموند فرويد القائلة بأنّ المكانة الدونية التي حلّت فيها المرأة مجبرة لا مخيرة، سببها الوحيد هو فقدانها وافتقارها للعضو الذكوري وهو ما وصفته بالتحليل النفسي الضعيف[1]. هذه النقطة بالذات تكشف لنا انطلاق نسويات الموجة الثانية من التحليل النفسي، سواء معارضات لبعض الأفكار والمقولات التي جاء بها بعض المحللين النفسانيين، أو العمل ببعض المقولات التي تخدم مصالحهن ومطالبهن، كما دخلن في حوار عميق مع العديد من الفلاسفة ومع فلسفات أخرى مغايرة.

1. الموجة النسوية الثانية: التحليل النفسي وتجاوز فرويد:

تميّزت النسوية الفرنسية عن نظيراتها في العالم المتحدّث باللغة الإنجليزية بكونها أكثر جنوحا إلى التنظير والتفلسف، وأكثر ميلا إلى فتح حوارات مع مختلف الفلسفات، ومع التحليل النفسي بشكل عام كما سبق وذكرنا. إذ نجدها تناهض التحليل النفسي الجاعل من الذكورة معيارا ومن الأنوثة انزياحا عنه. وهي مقولات أغلبها جاء بها فرويد، مما جعلها تفتح عداوة معه، رغم عدم دعوته لنظام بطريكي واكتفائه بتحليله فقط. لكن في المقابل فتحت هذه الحركة علاقة وطيدة مع المحلل النفساني جاك لاكان الذي أعاد قراءة فرويد من جديد قراءة أساسها الشك موليا اهتمامه لأصول الفروق بين الجنسين، هذا الاهتمام جعل نظريته في التحليل النفسي أساس الوعي الأنثوي والهوية الأنثوية، حيث اقتربت كل من هيلين سيكسو وإريغاراي وجوليا كريستيفا منه، كما اقتربن من فلاسفة الاختلاف كميشال فوكو وجاك دريدا وغيرهما[2].

بذلك وضعت نسويات الموجة الثانية نظرية فرويد المتعلّقة بالأنوثة موضع شك عميق، شأنهن شأن جاك لاكان، ورحن يسائلن تحليلاته ومقولاته، معتبرات نظريته تلك وليدة أو نتاج المجتمع الأبوي الذي نشأ وترعرع فيه فرويد، مما قدّم له نوعا من الدعم الأيديولوجي، ولم تكن العداوة القائمة فيما بينهما قائمة لأجل العداوة فقط، إنّما جاءت لكسر التابوهات ومحاربة القمع الجنسي، كما جاءت كتحدي لرأيه المثير للجدل والقائل بأنّ الهوية الأنثوية تتميّز

[1] ينظر: خطابات المابعد، في استنفاد أو تعديل المشروعات الفلسفية، مجموعة مؤلفين، إشراف: علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف(بيروت)، منشورات الاختلاف(الجزائر)، دار الأمان(الرباط)، ط1، 2013، ص 259.

[2] ينظر: مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، حفناوي بعلي، ص 13، 14.

بالسلبية، على وجه الخصوص بمشاعر الغيرة من العضو الذكري، وهو إحساس أو شعور يلازم المرأة طيلة حياتها ويشعرها بمكانتها الدونية وبنقصها الجسماني[1]. إذ تفقد المرأة القضيب فتفقد بذلك مكانة الرجل لتصبح مجرد جسد ناقص لا يعوّل عليه جسد يصلح فقط لسد الرغبات الجنسية وللحمل والوضع، ولتحمّل مشقات الأعمال المنزلية.

لم يتوقف الحد عند الشعور بالغيرة فقط، إنما تطوّر ليصبح حسدا قضيبيا. إذن ففرويد ربط دونية المرأة وافتقارها للعضو الذكوري مما يعني افتقارها وفقدانها للعديد من المزايا والمميزات الذكورية، ربط كل ذلك بالجانب البيولوجي، في حين ذهب جاك لاكان إلى أبعد من ذلك حيث أقام نظريته على أساس غير بيولوجي.

إنّ عودة العديد من النسويات إلى أعمال فرويد كشف لهن الفرق بين التحليل النفسي وإرساء المعالم الذكورية، بل ووجدن العديد من الآراء التي تخدم مسارهن التحرري. وهذا ما ينطبق أيضا على جاك لاكان؛ فكلاهما نُظر إليهما بطريقة متناقضة، فهناك من رأى أن نظرياتهما تخدم الحركة النسوية، وهناك من رآها نظرية أبوية تعارض الطرح النسوي لكن العودة إلى أعمالهما مساءلة ونقدا وتحليلا خدم الحركة النسوية بشكل كبير، وقدّم تحليلات للعديد من العقد التي راحت تفسر سبب دونية المرأة.

أعاد جاك لاكان قراءة فرويد من جديد، بل ووضعه موضع مساءلة، وراح يحفر عميقا في نظريته ومقولاته، منطلقا من فرويد نفسه ليُرسي معالم نظريته الخاصة في التحليل النفسي، حيث كانت كتابات سيجموند عن تشكيل الاختلاف الجنسي بمثابة الأساس أو الركيزة التي انطلق منها لاكان، فقد تتبّع أثر العناصر المناهضة للنزعة الإنسانية في أعمال فرويد، الأمر الذي أدى إلى اكتشافه لعملية تشكيل الذات، التي عُدّت عند من سبقه من الإنسانيين، جوهر الإنسان.

جاءت أعمال جاك لاكان بما في ذلك كتابه" كتابات" الصادر عام 1966 والذي عُدّ أهم كتاب ساهم في توطيد العلاقة بينه وبين النسويات، خاصة جوليا كريستيفا وهيلين سكسو ولوس إريغاراي. قلنا جاءت هذه الأعمال لتدرس تأثير الرغبات اللاشعورية كما تتبدى في اللغة، مُعيدا بذلك جاك صياغة مقولة ديكارت القائلة ب:" أنا أفكر إذن أنا موجود" لتصبح: " أنا لست

[1] ينظر: النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل، تر: أحمد الشامي، المشروع القومي للترجمة، مصر، دط دت، ص 245، 246.

موجودا حيثما أفكر، وأنا أفكر حيثما لا أكون موجودا" كما طرح لاكان مفهومي الخيالي والرمزي التي استثمرتها العديد من النسويات، خاصة اللواتي تم ذكر أسمائهن مسبقا[1].

تطرّق لاكان أيضا إلى نقطة مهمة تناولها فرويد كثيرا، والمتمثّلة في عقدة أو أزمة أوديب، إلا أنّ تطرقه إليها جاء في إطار اكتساب اللغة، وقد أطلق على المرحلة ما قبل الأوديبية بالمرحلة الخيالية، وهي المرحلة التي يرى الطفل فيها نفسه كجزء لا يتجزأ من أمه ولا فاصل يفصل بينه وبينها أو بينه وبين العالم. عندما يكسر الأب تلك العلاقة القائمة بين الأم وطفلها أي لحظة حدوث وتشكل الأزمة أو العقدة الأوديبية كما يسميها فرويد، يبدأ الطفل في تلك المرحلة بالدخول إلى النظام الرمزي؛ أي دخوله إلى منظومة لغوية تعتمد أساسا على مفهوم الاختلاف، حينها يتموضع الطفل موضع الذات، ويبدأ عملية كبت رغبته في أمه، التي تشكلت في المرحلة الخيالية، وهي رغبة محرمة بسبب ما يُطلق عليه لاكان بقانون الأب. هنا تبرز رمزية القضيب، وأنّ الذكر بالنسبة له ما هو إلا بنية ثقافية تعزو القوة الرمزية إلى القضيب الحقيقي. إذن فنظريته تشير إلى أنه لا يوجد من يمتلك رمز الذكورة لأنه شيء خيالي يمتلكه الأب، لا يعبّر عن القوة وإنما عن النقصان والغياب. غياب رغبة الشخص الآخر التي من خلالها يعي الرجل رمز ذكورته[2]. هذه الفكرة الأخيرة راقت كثيرا للنسويات ورحن يتغنين بها وبأفكار لاكان، لكن مع لوس إريغاراي حدث العكس وهو ما سنوضحه لاحقا.

2. وقفة مع لوس إريغاراي:

إذا ما أردنا الحديث عن هذه الكاتبة النسوية والمواطنة الفرنسية، فسنقول بأنها محللة نفسانية وعالمة لسانيات، باحثة متخصّصة في الدراسات الفلسفية. ولدت عام 1932 في بلجيكا في مدينة بلاتون، متحصّلة على درجة ما بعد الثانوية في الفلسفة والأدب من جامعة لوفان عام 1954. درَّست في المدرسة العليا في بروكسل قبل دخولها إلى جامعة باريس عام1961، أين حازت على ديبلوم في علم النفس المرضي، لتعود بعد تخرجها إلى بلجيكا، حيث وجدت لنفسها موضعا في المؤسسة الوطنية للبحث العلمي، واشتغلت فيها إلى غاية 1964، ثم انتقلت إلى مؤسسة

[1] ينظر: المرجع السابق، ص 253، 254.

[2] ينظر: النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل، ص 254.

مماثلة لكن في باريس، والمتمثلة في المركز الوطني للبحث العلمي، عملت فيه منذ ذلك الحين، حيث تمّ تعيينها سنة 1982كمديرة للأبحاث في الفلسفة.

بعدها سعت للحصول على درجة الدكتوراه في اللسانيات من جامعة باريس نانتير، وقد حملت أطروحتها عنوان: لغة المجانين، عالجت فيها البنى اللسانية المستعملة من طرف المرضى والمصابين بالفصام والأمراض العقلية. عملت ما بين 1969 و1974 كمدرسة في جامعة باريس فانسان، أين كانت تابعة للمدرسة الفرويدية.

بعد تحصلها على الدكتوراه راحت تُحضّر لدكتوراه ثانية في التحليل النفسي وقد أحدثت أطروحة تخرجها عاصفة وأثارت الكثير من الجدل، هي نفسها الكتاب الذي يُعد ركيزة فكرها المتعلق بالحركة النسوية وموجات التحرر، الحامل لعنوان: نظرة تأملية للمرأة الأخرى[1]. اهتمت من خلاله بالقضايا النسوية، إلا أنها كانت تعارض كل من يطلق عليها بالكاتبة النسوية، لأنها عملت من خلال أفكارها وأبحاثها على تجاوز مختلف الأطر المعلبة التي تُقيّد أو تُصنّف الكاتب ضمن خانات معينة أو محددة. لكن هذا لم يُسقط عنها كونها مصنفة ضمن أهم رائدات الحركة النسوية في فرنسا، بل وأصعبهن نظرا لما يزدحم من تعقيد في أساليبها الكتابية.

كتبت إليزابيت غروز عن أسلوب لوس قائلة: " إنّ كتابتها وأساليبها تشمل أشكالا جديدة من الخطاب، وطرقا جديدة في الكلام، إنها شعر مبدع بالضرورة يستحضر ويثير تصورات جديدة للمرأة والأنوثة "[2]. وقد تجلى هذا الأسلوب واضحا في العديد من الأعمال سواء المبكرة أو المتأخرة، ومن بين هذه الأعمال نذكر على سبيل المثال لا الحصر: عشيقة فريدريدك نيتشه، نسيان الهواء عند مارتن هايدغر العواطف والرغبات الأولى. هذه الأعمال قدمت فيها لوس قراءات لبعض الفلاسفة حيث ولّت انتباهها للعناصر المكبوتة التي أهملت بصمت، وهي كلها عناصر وثيقة الصلة بأتباع الحركة النسوية، كالجسد، الماء، الهواء، النار والتراب[3].

---

[1] ينظر: أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية: من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، محمد بكاي، دار الرافدين، لبنان، opus، كندا، ط1، 2017 ص 223، 324.

[2] خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، مجموعة مؤلفين، تر: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص 334.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 334.

المسكوت عنه أو المهمش شكّل أرضية انطلاق لفكر ولمقولات إريغاراي. والكتابة عن هذا المتوّج بالصمت، المحرّم عن الصوت تستلزم لغة تجيد التعبير عما لم يتم التطرق إليه لذلك جاء أسلوب لوس معقّدا وصعبا كي يواكب هذا المخفي، ولكي يعري المستور أو المتستّر عنه.

3. لوس إريغاراي والتحليل النفسي:

تنتمي لوس إلى مدرسة لاكان الفرويدية فهي عضوة من أعضائها، وقد بدأت الاهتمام بالتحليل النفسي منذ بداية اهتمامها بالقضايا النسوية، وانخراطها في هذه الحركة الأنثوية، ومنذ بداية اشتغالها على الدكتوراه الثانية، التي كانت حول التحليل النفسي.

لقد استفادت كثيرا من طروحات جاك لاكان، بل واعتنقت آراءه التحليلية لكن هذا لا يعني أنها أخذت بأفكاره كما هي، وانساقت وراء ما جاء به، بل على العكس تماما، إذ نجدها تختلف معه وتعارض النتائج التي توصّل إليها خاصة تلك المتمحورة حول المرأة. ليس هذا فحسب بل أعلنت أنّ نظرية التحليل النفسي برمتها ليست تحليلا للنظام الأبوي بل عبارة عن نموذج آخر له. من أجل ذلك جاءت أعمالها كنقد للتحليل النفسي، حيث عملت من خلال نقدها له على تغيير الطرق التي نفكّر بها[1].

تنتمي لوس إلى الجيل الثاني من الحركة النسوية، هذا الجيل الذي تجاوز السؤال عن اللامساواة الإجتماعية التي تمر بها المرأة، ملتفتا إلى البُنى الأيديولوجية المترسّخة، الواضعة للمرأة في مواضع دونية وأماكن غير ملائمة لمصالحهن بالنسبة إلى الرجل، إحدى هذه البُنى هي النظام الأبوي، والثانية هي العقد الاجتماعي البالغة التأثير في تسويغ المؤسسات السياسية الغربية. لقد استلهم هذا الجيل استبصاراته الخاصة بالتحليل النفسي على طريقة جاك لاكان، المُبيّن إلى أنّ الوعي أو الأنا ليس مركز الذاتية، مُتحدّيا التحيز المتعلّق بالجندر أو الجنس، في اللغة والقانون والفلسفة، ويُحاجج بأنّه ينبغي على النساء أن لا يهدفن إلى أن يصبحن مثل الرجال كما طالبت بذلك المعركة الخاصة بالمساواة الاجتماعية، بل ينبغي عليهن تطوير نوع جديد من اللغة والقانون والأساطير(الميثولوجيا)، المُتّصف بكونه نسويا، أنثويا بصورة محددة[2]. هذه المطالب

[1] ينظر: النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل، ص 256.

[2] ينظر: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، مجموعة مؤلفين، ص 327.

بالذات المتجاوزة للمساواة الاجتماعية، هي من مهّدت إلى فكرة الاختلاف الجنسي، وضرورة تأكيد الهوية الأنثوية التي عملت عليها إريغاراي.

4. الدعوة إلى ضرورة الاختلاف الجنسي:

أخذ مفهوم الاختلاف الجنسي يفرض نفسه في السنوات الأخيرة بوصفه واحدا من المفاهيم الأساسية، الذي تجدّد من خلاله الاشتغال على خطاب التحرر وإعادة النظر في العديد من المطالب المرفوعة من قبل النسويات، لم يتوقف عند هذا الحد بل ساهم بشكل كبير في نضج تلك المطالب وتطور تلك الخطابات، حيث بدأ الاهتمام بكيفية تشكيل هوية أنثوية في النصوص أيضا، والنزوع إلى إقرار هذا المفهوم كمبدأ تفسيري تُفسّر وتُنقد به النظريات الأدبية، حيث أصبح كإطار نقدي تحلّل من خلاله البُنى الاجتماعية والسياسية والتشكيلات الثقافية، بسبب توفيره لأرضية مفاهيمية خصبة، انطلاقا منها يمكننا مساءلة النزعة العالمية الشمولية، التي تدّعيها المعارف البطريكية والمركزية القضيبية، نظرا لوقوف الاختلاف الجنسي ضد المنطق الأحادي المُختزل للآخر في نسخة مزيفة وباهتة، ووقوفه ضد منطق التماثل والمساواة المطلقة، التي تلغي الحق في الاختلاف. هذا الأخير الذي دعا إلى ضرورة العودة والرجوع إلى أصل الهوية الثنائية للكينونة، فمفهوم أو مبدأ الاختلاف الجنسي طرح نموذجا بديلا، مُقترحا يخدم الإثنين بدل الواحد[1]. من هنا تعالت الأصوات المنادية بضرورة احترام الآخر واختلافه، بل وإدراجه في عملية تشكيل الهوية وتحديد معالمها، فالهوية تحمل الآخر بين طياتها، إنها من الهو المغاير والمختلف، الذي ليس أنا. تنادي الهوية ضمنيا بالغيرية، ولا يمكن أن نعرفها دون حضور الآخر المرآة التي تُري الذات ذاتيتها وتعرفها على ملامحها.

من هنا انطلقت جهود المحللة النفسانية لوس إريغاراي التي آمنت بأنّ الاختلاف الجنسي نتاج اللغة واللسانيات، فابتعدت إذن بمفهومها هذا عن الجوانب التشريحية، شأنها في ذلك شأن جاك لاكان. كما آمنت بأنّ تشكيل هوية الطفل تأتي أساسا من تأويل وتفسير وجود جسم وهمي متخيّل، وأنّ تعيين دور الجنسين يتم من خلال اللغة وبواسطتها لا بواسطة علم

[1] ينظر: مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، حفناوي بعلي، ص 107،108.

التشريح[1]. لم تتوقف عند هذا الحد بل عملت أيضا على بناء أشكال أنثوية للرمزية أو الترميز واللغة، أشكال قائمة على جوانب التجربة الأنثوية، التي كانت متموضعة خارج نطاق طرق التعبير التقليدية.

لقد قامت في كتابها المثير للجدل والذي من خلاله نالت شهرة ومكانة مرموقة بين النسويات، المعنون ب: نظرة تأملية للمرأة الأخرى المنشور عام 1974 والذي بسببه تم طردها من المدرسة الفرويدية التي كانت تنتسب إليها فيما مضى كما تم إنهاء مهامها في التدريس، دون أن تستسلم بل واصلت اشتغالها على التحليل النفسي من خلال مجموعة من الأعمال والأبحاث، واستُقبِلت كأستاذة زائرة في العديد من الجامعات[2].

قلنا لقد قامت من خلال ذلك الكتاب بإعادة فحص فكرة الأنوثة بما في ذلك العلاقة الرابطة بين الأم وابنتها عند فرويد والتحليل النفسي، هذا الفحص كان الهدف منه السعي إلى تطوير طريقة أنثوية محددة في الكتابة؛ أي كتابة من شأنها أن تقوّض زعامة الخيال الذكوري الذي حكم على المرأة بالصمت لمجرد أنها امرأة[3]. إذن فإريغاراي تطالب بضرورة ابتكار كتابة ذات طابع أنثوي، ولو تأملنا قليلا لوجدنا بأنّ الكتابة في حد ذاتها كلمة مؤنثة، لكن تم إسقاط ذلك الامتياز عن المرأة وإرغامها على الصمت، إلا أنها بدأت في الخروج عنه بمجرد ما اقتحمت عالم الكتابة واللغة وأصبحت تصرخ في وجه العالم والورق أيضا، مستخدمة حبالا لا صوتية وإنما حبرية.

نادت لوس بلا إمكانية بيان أي أمر من الأمور دون رمز، ولكي تستعيد المرأة كيانها وتحفظ اختلافها عن الرجل، وجب عليها أن تتبع إستراتيجية المقاومة من الداخل إستراتيجية تقوم بحل البنية الرمزية، باستخدام وسائل وأدوات البنية نفسها؛ أي أنها عبارة عن تقليد ومحاكاة ساخرة؛ فدعت كي يتم ذلك إلى الكتابة من داخل الفراغات البيضاء بين الأسطر التي خطها الرجل.

---

[1] ينظر: الفلسفة والنسوية، مجموعة مؤلفين، إشراف: علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2013،ص 425.

[2] ينظر: أرخبيلات ما بعد الحداثة، محمد بكاي، ص 324.

[3] ينظر: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، مجموعة مؤلفين، ص 329.

لقد وجّهت النساء إلى ضرورة الاهتمام باللغة ودراستها، وإلى تقويض الأعراف اللغوية والبنائية والميتافيزيقية للقصة الغربية، عن طريق كتابة أنثوية/ نسائية، كتابة شبيهة بما كانت تكتبه إريغاراي نفسها، المعتمدة فيها على أسلوب التورية والتلميح، تفكك الكلمات وتعمل على التقليل من شأن الهياكل الثنائية للخطاب الذكوري[1]. الدعوة إلى ضرورة ابتكار كتابة ذات طابع ناعم وأنثوي، هي دعوة صريحة إلى ضرورة مجاوزة تعبير المرأة عن نفسها بأسلوب الرجل وبطرق كتابته. لقد تميّزت هذه الكتابة النسائية بالتفاتها إلى المشاكل النسوية ومعالجتها لقضايا حساسة بطريقة لا تخلو من المتعة، والهدف من كل ذلك تفكيك المركزية الذكورية والبحث للمرأة عن مكانها المستحق في المجتمع، إلى جانب تحرير المرأة لجميع مكبوتاتها وتعويضها عن النقص الملازم لها منذ أمد. فقد كتبت عن المسكوت عنه والتابو محاولة البحث عن هوية خاصة بها، عن أنوثة جديدة لا تضعها موضعا دونيا، تلغي على إثرها تلك التراتبية لتنجو من جحيم الدونية.

حاولت إريغاراي أن تعالج قضية الإختلاف الجنسي عن طريق اللغة ومن خلالها تماما كما فعل جاك لاكان، لكنها ناقضته ونقدته؛ فإذا كانت اللغة عنده رمز للقضيب، أي ذات طابع فالوسي لا يمكن اختزاله، فإنّ الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرأة فيها أن تتلكم وأن تعبّر عن نفسها هي أن تستلي على الأداة الذكورية في حد ذاتها؛ أي أنها يجب أن تمتلك الفالوس الذي ينقصها، كي تعوّض عجزها وتبني جسورا تربطها بالآخر، ولكي تحقّق ذلك ولكي تكون اجتماعية عليها أن تتكلم كرجل، فإذا لم تفعل فستصاب بالنكوص أو الذهان مما يسبب انقطاع الرابطة الاجتماعية.

هذه باختصار هي رؤية لاكان للغة أو نسخته المسماة بالنسخة الأب، وهي في نظر إريغاراي متكررة في معظم نظريات التحليل النفسي، الخاصة باللغة والشؤون الجنسية نستخلص من كل ذلك أن مصدر اضطهاد المرأة هو الرمزي نظرا لكونه ميدانا لقانون أُسّس باسم الأب، ليبقى الحقيقي عبارة عن مكان للأم تتموقع فيه الموت، أما الخيالي فما هو إلا أثر الرمزي في الخيال والوعي. هذه هي المفاهيم التي انطلق منها لاكان وانطلقت منها إريغاراي أيضا لتصل هذه الأخير إلى نتيجة مفادها أنّ نظام لاكان الرمزي؛ أي شرط اللغة في أساسه ذو طابع

[1] ينظر: مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، حفناوي بعلي ص 108، 109.

ذكوري أبوي، حيث نجد اللغة تتكلّم بمخيال رجل خاضعة لقانون النظام الرمزي، وأنّ أي شيء يقع خارج هذا النظام عليه أن يمتثل لشروطه[1]. في ذلك عملية إلغاء واضحة المعالم للآخر المختلف/ الأنثى، فالآخر عليه أن يلتزم بقواعد الذات المهيمنة/ الرجل المحتل للصدارة في تراتبية الوهم. وإذا لم يفعل وقرّر الاحتفاظ بخصوصيه وباختلافه فإنّه لن يجد وسيلة رمزية متاحة، تسعفه على الدخول في علاقات اجتماعية، أو على تحقيق فعل التواصل، لذلك سيبقى هذا الآخر/ الأنثوي معزولا وفي الدرك الأسفل، يحتل مرتبة دونية ومهمشا لا يمكن التعبير عنه إلا إذا عبّر كرجل.

هذا الاضطهاد لم يبقى في حدود الرمزي واللغوي بل نجده أيضا في الجانب الجنساني كما عبّر عن ذلك سيجموند فرويد، لذلك عملت إريغاراي على نقد التحليل النفسي برمته، خاصة ما تعلّق باللغة والثقافة، فبدا لها من خلال نقدها أنّ حتى ما كان يبدو للعيان دعوة للمساواة بين الرجل والمرأة، هو في حقيقة الأمر ليس إلا عملية تسوية مذلّة ومشبوهة[2] تسعى إلى إلغاء الفروقات والاختلافات، لذلك سعى نظام الأب إلى سلب المرأة حقها في الكتابة أو بشكل دقيق حقها في ابتكار كتابة أنثوية لكي تبقى معزولة تعاني من القهر.

5. المساواة الجنسية:

نادت إريغاراي بأنّه من الخطأ أن ندعو إلى مساواة المهبل بالقضيب محاولين من خلال ذلك تحقيق مساواة جنسية أكبر تقوم بين الرجل والمرأة، وتقول بأنّ هذا النداء إلى المساواة ما هو إلا استسلام لا شعوري لمقولة فرويد المتمثّلة في الحسد القضيبي. فعند فرويد يمثّل القضيب أساس التطور الجنسي لكلا الطرفين بينما عدّ جاك لاكان وجوده أو غيابه دلالة على وجود الفالوس أو غيابه، وهذا ما يدل وما يعبّر عن الاختلاف الجنسي، في حين رمز الفالوس عند إريغاراي إلى النقص الكامن في المرأة باعتباره الآخر، أو الكائن المخصي[3].

نعود هنا إلى عقدة الخصاء بالنسبة للمرأة الكامنة في كونها لا تملك شيئا تمنحه للرؤية donner a voir، بل وفي كونها لا تملك شيئا من ذكر الرجل، وأكثر من ذلك في كونها ترى أنها لا

[1] ينظر: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، مجموعة مؤلفين، ص 330،329.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 330.

[3] ينظر: المرجع السابق، ص 331.

تملك شيئا؛ أي ذات الشيء الممتلك من قبل الرجل لا تملك عضوا جنسيا بارزا يمكنه الظهور؛ لا شيء يُرى معادل لامتلاك اللاشيء هذا الأخير يعني عدم امتلاك الحقيقة، هذا ما يُفسّر التواطؤ القائم بين العضو الذكري والسلطة[1]. فمن يمتلك السلطة هو بالضرورة يمتلك حقيقة، والحقيقة الوحيدة المعترف بها في المجتمع الذكوري هي حقيقة القضيب، البارز، القابل للرؤية؛ وما يُرى حقيقي بالضرورة من وجهة نظر ذكورية، في حين تملك المرأة المهبل المضمر غير البارز، فهي بذلك لا تملك شيئا تعرضه مما سبب انتزاع السلطة منها وإحالتها إلى مكانة دونية، تُعد فيها مجرد رجل لكن مخصي، أي رجل ناقص، إنها مركب نقص بحسب ما نادى به التحليل النفسي وجسّده المجتمع.

من هنا انتفضت إريغاراي على تفسير الجنسانية الأنثوية وتفصيلها وفقا لمعايير ذكورية محضة، ففي ذلك إلغاء لحق الاختلاف الجنسي، وتوزيع للمراتب بشكل تعسفي. كما أنّ تقابل النشاط القضيبي وجها لوجه مع السلبية المهبلية نتج عنه ما يُعرف بالحسد القضيبي، كعقدة أنثوية تجعل الأنثى تتباهى بجسدها كي تعوّض ما ينقصها، عارضت لوس هذه الفكرة، إذ لا يمكن للمرأة أن تتباهى بجسد ناقص قصد التعويض عن دونيتها، إنما في حقيقة الأمر تتباهي باختلافها الجنسي وبتميّزها. لذلك وجب أن ننتبه للفرق بين النقص والاختلاف، فالاختلاف لا يعني أنّ الذات المهيمنة/ المسيطرة/ الذكورية، مكتملة لا تشوبها شائبة، وأنّ الآخر يعاني من عوز في المواصفات الجنسية مما يلقي به في دائرة المهمّش، إنما يعني أنّ الذات/ الرجل تمتلك ما يُثري الآخر/ الأنثى ولا يكمله لأنه ليس ناقصا، كما يُثري الآخر الذات أيضا. فالقضيب الذي يُعد مركز الذكورة وكل أسباب التسلط والتميّز، يحتاج في حقيقة الأمر إلى المهبل كي يحقق رغبته ولذته.

خاتمة:

نستخلص مما سبق أنّ الاختلاف الجنسي كامن في اللغة، يكفي أن نعبر بالطريقة الصحيحة حتى نتجاوز العداء وسوء الفهم. لذلك دعت لوس إريغاراي إلى ضرورة دراسة المرأة للغة وامتلاكها للكتابة، كي تعبّر عن نفسها بالطريقة الصحيحة ولكي تزيل اللبس القائم الذي

[1] ينظر: سيكولوجية الأنوثة، مرآة المرأة الأخرى، لوس إريغاري، تر: علي أسعد، دار الحوار للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2011، ص 71.

فرض عليها دونيتها، فامتلاك اللغة يعني امتلاك الحق في أن أوجد كامرأة مستقلة ومختلفة عن الرجل، وعلى اللغة أن تحفظ لي حقي في الاختلاف الجنسي دون تعسّف.

غيّرت إريغاراي بأسلوبها المعقد في الكتابة، وبنقدها للتحليل النفسي وباعتمادها على التفكيك كوسيلة لدحض التخيلات الذكورية، الطريقة التي تنظر فيها المرأة إلى نفسها، بل وأكثر من ذلك طريقة نظر الرجل والمجتمع والثقافة إلى المرأة. فابتكرت إثر ذلك لغة أنثوية مغرية وشهوانية حاربت من خلالها التصوّرات القائمة والنتائج المتوصّل إليها من قبل المحللين النفسانيين، التي تصب كلها في قالب النظام الأبوي. صحيح أنها انطلقت من نقد فرويد ومن بعض أفكار ومقولات جاك لاكان، لكنها توصّلت بسياساتها في التفكيك إلى نتائج مغايرة، ساهمت بشكل كبير في إثراء الحركة النسوية، إثراء جعلها من أهم الرائدات النسويات.

قائمة المصادر والمراجع:

1) الفلسفة والنسوية، مجموعة مؤلفين، إشراف: علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف، بيروت ط1، 2013
2) أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية: من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، محمد بكاي، دار الرافدين، لبنان، opus، كندا، ط1، 2017
3) خطابات المابعد، في استنفاد أو تعديل المشروعات الفلسفية، مجموعة مؤلفين، إشراف: علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف(بيروت)، منشورات الاختلاف(الجزائر)، دار الأمان(الرباط)، ط1 2013.
4) خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، مجموعة مؤلفين، تر: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008.
5) سيكولوجية الأنوثة،مرآة المرأة الأخرى، لوس إريغاري، تر: علي أسعد، دار الحوار للنشر والتوزيع، مصر ط1، 2011
6) مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، حفناوي بعلى، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2009.
7) النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل، تر: أحمد الشامي، المشروع القومي للترجمة، مصر، دط دت.